مالك سمارة *

«قصائد» لأبراهام شتيرن: صورة عن «البنية الفوقية» العصابات الصهيونية

تقديم

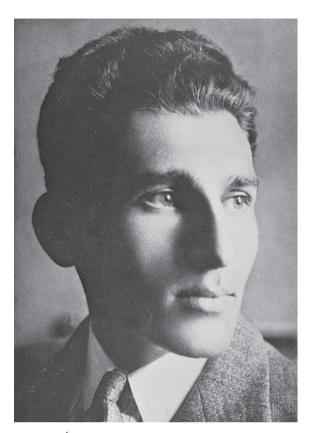
ليس أفراهام شتيرن (١٩٤٢-١٩٤٢) بالشخصية المارقة في الثقافة الصهيونية الحديثة؛ على ضالة إنتاجه، وقصر حياته السياسية، وعزوف خطابه عن الخطاب الصهيوني المركزي المؤسس، وعن خطاب اليمين التنقيحي حتّى؛ الذي انشقّ عنه في خضمّ الحرب العالميّة الثانية، متبنيّا نهجًا أكثر «صقوريّة» عبر تنظيمه الجديد: «ليحي»، الذي صار لاحقًا يعرف باسمه. الحديث عن «شتيرن» يعني الحديث عن من منظمة ستؤيّر التعاون مع ألمانيا النازيّة إبّان عن منظمة ستؤيّر التعاون مع ألمانيا النازيّة إبّان إسرائيل ضمن «حدودها التوراتيّة»؛ ثم ستنخرط بعد ذلك ببضع سنين في نكبة الشعب الفلسطيني، تترك بصماتها في أكثر من مجزرة؛ على رأسها مجزرة دير ياسين؛ ثم ستنخرط في المؤسسة العسكرية الإسرائيلية (الجيش) بعد تأسيس الدولة، ويُمنح أفرادها، الذين

كانـوا يوصفون سابقًا بـ«العصابة» حتى في أوساط التيار الصهيوني السائد، أوسمة ورواتب تقاعديّة؛ وستبقى ذكرى اغتيال مؤسسها على يد الشرطة البريطانية في العام ١٩٤٢ مناسبة سنويّة يحضرها مسؤولون إسرائيليون ممثّلون عن الدولة، وسيُحتفى بصاحبها من أجهزتها الرسمية – مثلًا – عبر طابع بريدي حكومي عام ١٩٧٨، ومستوطنة ستحمل اسمه الحركي «كوخاف يائير» في العام ١٩٧٨؛ حتى قبل أن يُصبِحَ خلَفُه في رئاسة المنظمة، إسحق شامير، رئيسًا للوزراء في إسرائيل، مرّتين.

لم يبرز اسم شتيرن ضمن ثلّة الأدباء المؤسسين في فترة «الييشوف»، كحاييم بياليك وناتان ألترمان وأوري تسفي جرينبرج، سوى أنّه انفرد عنهم بكونه جمع بين الكتابة الشعرية والعمل العسكري، «وكان الوحيد في ذلك عبر التاريخ اليهودي»، والاقتباس هنا على لسان شامير نفسه، الذي يستدرك مذكّرًا

بشخصيّة أخرى وحيدة جمعت بين تينك الصفتين: «الملك داود». لكن لا يسدو غياب شتيرن يوصف أديبًا في تلك الحقية متّصلًا بنوعيّة قصائده، المحمّلة باللغة العنيفة والمشبعة بمفردات الحرب، بقدر ما كان ثمنًا لحياده السياسي عن التيار الصهيوني الرئيس المتحالف مع الانتداب البريطاني. في جوهر الأمر، تلك اللغة الفظّة، التي تبدو مجرّدة من الشاعرية، مغرقة في الخطابة، مترفّعة على البلاغة والصور، غير مواربة في الدعوة إلى القتل، لا تبدو ناشزة في أدب صهاينة ذلك الزمان، وعلى رأسهم بياليك، الذي يــؤرّخ البعــض لقصيدتــه «في مدينــة الذبــح» (١٩٠٣)، مثلًا، على أنّها أحد أكثر النصوص أثرًا في تأسس «الجيل الصهيوني المارب». على الرغم من ذلك كلُّه، يحظي شتيرن اليوم باعتراف أدبى في إسرائيل، فضلًا عن الاعتراف السياسي-الأيديولوجي: تدرّس بعض قصائده للنشء في المنهاج التعليمي، كما أن ثمّـة منشـورات عـدّة تتناول إنتاجـه الأدبـي بالنقـد والدراسة، أبرزها كتاب بالعبريّة عنوانه: «ليس من أجلنا يغنّى الزيزفون: قصائد أفراهام شتيرن»، للناقدة والأديدة الإسرائيلية بائسرا جينوسار.

على ما سبق، لا تقدّم القصائد المعروضة هنا جديدًا عند الحديث عن موضوعات العنف و«طهارة السلاح» في الثقافة الصهيونيّة، بقدر ما تضيف زخمًا إلىها، وتفتح سعلًا أمام مقارنات ومقاربات جديدة: إلى أي حد يلتقى المركزي بالهامشي في هذا السياق؟ وكيف يتقاطع العنف المؤسسي مع العنف المنفلت/ المتمرِّد في ساحة اللغة، كما يتقاطع في ساحة الواقع؟ هل كان بياليك أكثر «رصانة» و»شاعريّة» بأى حال؟ تلك «القصائد» التي يتحدّث فيها شتيرن على لسان آلهة متعطّشة للدم، وللحرائق والخرائب، ويمجّد فيها الموت، الموت وحدَه بلا شرط ولا عاقبة، بلا اسم ولا هوية، ويقدّم فيها رابطة السلاح على رابطة العائلة؛ كانت بمثابة «أناشيد وطنيّة» لمنظمة «ليحي»، وقبلها «أرجون» (التي كان شتيرن أحد مؤسسيها)، وربّما أهازيج جنودها وهم يعيثون في القرى الفلسطينية خرابًا. تلك لحة بسيطة عن «البنية الفوقية» للعصابات



أبراهام شتيرن

التي صُنفت يومًا ما من قبل من كان يمثّل النظام العالمي في حينها على أنها «منظمات إرهابية»، قبل أن تتماهي لصهيونية – وليد النظام العالمي ذاته.

١. أيها المنتقم

اسمع، يا أيها المنتقمُ، صوت إلهك يسحق رأسًا صلدًا بيد سامية ولتقر كلماته في قلبك: قدّس أسلحة الحرب يومًا بعد يوم

في مكوثك في منزلك في مسيرك في حقول الخوف في منامك وقيامك قدِّس أسلحة الحرب

لدودٌ عسر! -ابن قومك-

¹ http://www.saveisrael.com/others/shamir/yitzchakshamir.htm

² https://blogs.timesofisrael.com/two-poems-find-thedifferences/

وسيومض دمه في هاوية يأس قاتمة مملكةُ إسماعيل هنا في صهيون! اسمع صوتي أيها الأول والأخير! ولتنثر اسمي ذهبًا في فلاة رصاصيّة

•••

مزّق أصفاد العبودية، اغتسل بدم العدو وأسد خبز الفداء لكلّ جائع ضع تاج الملكية على رأس مدينة قتماء يا سيّد أورشليم وصهيون!

...

٣. إله العبرانيين

إله العبرانيين، والحياة والرغبات متعطّش للدم ويمد حرابه ولجندي مجهول يمضي طالبًا سلاحه الأغلال في يساره، وفي يمينه السلطان

.

إلهُ العبرانيين، الدرعِ والموت أُججَ نارًا وشحِّرَ الرماد يومَ أن مضى جندي مجهول لموعد الجِلاد مخرزه في يساره وفي يمينه الحرِّية

.

إله العبرانيين، والمأساة والأبدية متعطّش إلى المملكة وينادي رجاله وجنديّ فيروزي-قرمزي عالي الجبهة يصعد وراءه إلى المشنقة.. وإلى الملكية بعدها ابن أمك، ابن دمك إن كان أبواك ممن لهما شأن عندك فقدّس أسلحة الحرب

۲. أنا جندي وشاعر

أجل، أنا جندي وشاعر! أكتب اليوم بالقلم، وغدًا أكتب بالسيف أكتب اليوم بالحبر، وغدًا أكتب بالدم اليوم على الورق، وغدًا على ظهر إنسي

> السماء منحتنا الكتاب والسيف ثم قضت الأقدار: جنديّ وشاعر يا لجلال وعظمة أغنية شاعر

بين سواد دعائم بيوتٍ محترقة؛ في قلبها ومض السيف

...

في ذهب النار اللاهبة، وقِرمِز الدم في زرقة النجوم –تتفتح بصيرة المرء ذاك الذي سيقاتل صباحًا من أجل حريّته وفي مساء المعركة ستدوي أغنية الشاعر في المعسكر

•••

متوحّشة ولاذعة المعركة الأخيرة على حافة فلاة من الحديد سماؤها رصاصيّة حيث الألم يثقب القلب كسيف العدو ستهوي جثّة الجندي على لقمة الفداء جوعى

. . .